قراءة في كتاب

علوم القرآن في المنظور الحداثي

للدكتور/ أحمد بوعود

٥

إعداد

عبد الإله العلوشي

مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center For Qur'anic Studies
www.tafsir.net

المعلومات والآراء المقدَّمة هي للكتّاب، ولا تعبّر
بالضرورة عن رأي الموقع أو أسرة مركز تفسير

قراءة في كتاب (علوم القرآن في المنظور الحداثي)

تأليف: د. أحمد بوعود[1]

يعدّ الرجوع إلى النتاج العلمي السابق ودراسته دراسة جادّة، خطوة لها مركزيتها وأهميتها في النهوض بالعمل العلمي وتطويره، والارتقاء به نحو فضاءات أكثر ريادة وعمقًا؛ وذلك لما تُتيحه هذه الخطوة المهمّة من إدراك لمواطن القوة في هذا النتاج التي يجب تنميتها ومتابعتها، ومكامن الضعف والقصور التي يتوجّب الخطو إلى تلافيها؛ ومن هنا ارتأى موقع تفسير إطلاق سلسلة من القراءات التقويمية للمؤلفات في مختلف فروع الدراسات القرآنية، آملًا من وراء ذلك الإسهام في تسليط الضوء على طبيعة واقع التأليف في حقول الدراسات القرآنية، وكشف جوانب القوة والضعف فيه، وتحديد مواطن النضج والقصور، وكذلك فتح العديد من الآفاق البحثية، والمجالات المعرفية للباحثين والدارسين؛ عبر ما تُثيره هذه القراءات من إشكالات وملحوظات.

موقع تفسير

بيانات الكتاب:

اسم الكتاب: علوم القرآن في المنظور الحداثي؛ دراسة تحليلية نقديّة لآراء الحداثيين في القرآن الكريم.

اسم المؤلف: د. أحمد بوعود.

عدد الصفحات: ٢٣١ صفحة.

نوع المؤلَّف: أطروحة دكتوراه.

دار النشر: دار الكلمة للنشر والتوزيع – القاهرة، مصر.

سنة النشر: ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

رقم الطبعة: الأولى.

(١) فازت هذه القراءة بالمركز الأول في مسابقة موقع تفسير (قراءة في كتاب)، والتي أُعلن عنها: ١٢/ ١٠/ ١٤٤٠هـ الموافق ١٥/ ٦/ ٢٠١٩م. (موقع تفسير).

سيرة علمية موجزة:

صاحب الكتاب (أحمد بوعود)، أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان في المغرب، مزج بين التكوين الشرعي والفلسفي؛ بحيث إنّ الباحث حاصل على درجتي دكتوراه؛ أمّا الأولى ففي الدراسات الإسلامية، من وحدة التكوين والبحث: تاريخ الأديان والحضارات الشرقية، بجامعة عبد المالك السعدي السالفة الذِّكر، ببحث موضوعه: «**علوم القرآن في المنظور الحداثي: دراسة تحليلية نقدية**»، وأما الثانية فهي درجة الدكتوراه في الفلسفة، من وحدة التكوين والبحث: الهيرمينوطيقا في الفلسفة والأدب والدّين، بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية في فاس، ببحث موضوعه: «**الهيرمينوطيقا والنصّ القرآني: مقاربة تأويلية مقارنة لمفهوم الإنسان في القرآن الكريم**». ومن شهاداته التي تحصّل عليها: دبلوم الدراسات العليا المعمّقة في الدراسات الإسلامية، من وحدة التكوين والبحث: القرآن الكريم ومستويات الدرس اللغوي، من جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ببحث موضوعه: «**تحليل النصّ القرآني عند محمد أركون: دراسة وصفيّة نقديّة**».

وللباحث كتب عديدة منشورة بالعربية والأجنبية، منها: (**مقاصد الشريعة: من النظر إلى السلوك**)، و(**فقه الواقع: أصول وضوابط**)، و(**البلاغ النبوي والبلاغ السياسي**)، و(Muhammad prophet for our time).

تمهيد:

كان القرآن الكريم -ولا يزال- منذُ بزغَ نورُه قبلةَ المسلمين، ينهلون مِن مَعِين هداياته ويبلّغونها، ويتحلَّون بفضائله، ويمتثلون لأحكامه وينشرونها، وقد استفرغ الصحابة رضي الله عنهم وسعَهم وجهدَهم في تبليغ هداياته وإرشاداته الرحمانية، ومعانِيه النورانية، بعد أنْ تلقَّوا عن النبيِّ ﷺ منهجَ التدبّر السليمَ لكتاب الله العزيز، فعلّموه خلَفهم، وذلَّلوا لهم السُّبل والعلوم التي يحتاجونها لتفسيره؛ كي يواصل التابعون -مع تبليغهم أيضًا ما تلقَّوه- النهلَ من مَعِين القرآن العزيز، الذي لا تنفدُ معانيه وهداياتُه وأسراره.

وبهذا صارَتْ للأمة الإسلامية علومٌ للقرآن الكريم، تهدف إلى إبراز ربّانيةِ هذا الكتاب العزيز، والعنايةِ الإلهية التي حظي بها جمعُه وقراءاتُه وأداؤها، وتضبطُ العملية التفسيرية، فكان لزامًا على كلّ ناظر في القرآن العزيز تعلّمُ تلك العلوم وتلقيها بدايةً. وما فتئ علماء الإسلام يدوِّنون تلك العلوم ويجمعونها في مصنَّفاتهم، سواء بتضمينها مقدمات تفاسيرهم وثناياه، أو بإفراد علمٍ من علومها بالتأليف، أو بجمعِ أغلبِها في مصنفاتٍ، تحملُ مسمى: (علوم القرآن).

وقد تتابع التصنيف في (علوم القرآن)، فظهرت فيه مصنفات جليلة، منها: (البرهان في علوم القرآن) للزركشي، و(الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، ومن الكتابات المعاصرة: (مناهل العرفان في علوم القرآن) للزرقاني، و(إتقان البرهان في علوم القرآن) لفضل عباس. غير أن هذا الاهتمام بعلوم القرآن، لم يكن

قاصرًا على المسلمين، بل كان للمستشرقين نصيبٌ وافرٌ في البحث فيها، فخلَّفوا تراثًا ضخمًا، خصوصًا في القرنين الماضيين؛ بفعل الاحتلال الذي كانت تشهده البلدان الإسلامية حينها. وقد تأثّر بذلك النتاجِ الغربي -الذي كان ينطلق من مسلَّماته ومرجعياته- عددٌ من الباحثين الحداثيين العرب والمسلمين على اختلافهم، فنجَم عن ذلك اختلافٌ في كيفية دراسة الموضوعات الإسلامية بصفة عامة، والمتعلقة بالقرآن الكريم بصفة خاصّة.

ثم انبرَى بعض العلماء والباحثين، للردّ أو التنبيه على ما تضمنته بعض مؤلفات الفكر الحداثي العربي، مما يخالف بعض القضايا التي كانت تتلقاها الأمة الإسلامية على أنها من المسلَّمات، ومن هذه الكتب التي بحثت آراء الحداثيين العرب في قضايا علوم القرآن، كتابُ (علوم القرآن في المنظور الحداثي: دراسة تحليلية نقديّة)، للأستاذ الباحث: أحمد بوعود؛ إِذْ بيَّن دوافع بحثه قائلًا: «مع عصر النهضة العربية والإسلامية، وبعد أن دخلَت الحداثة بلاد المسلمين، بدأت تظهر أسئلة جوهرية بخصوص التراث الإسلامي، ومنه علوم القرآن، من قَبِيل: هل يناسب تراثنا تطلعات الحداثة؟ كيف نتعامل معه في زمن الحداثة؟ من هنا، بدأ الفكر الحداثي يتناول التراث بدافع التحديث، إمّا رفضًا وإمّا تعديلًا وتنقيحًا. (...) [غير] أن تناول مجال علوم القرآن بالأسئلة نفسها يشكِّل خطورة كبيرة؛ لاتصاله بكتاب الله تعالى وبأصل الدّين المنزَّل إلى الناس ليهتدوا بهديه؛ لذا كان الاقتراب من علوم القرآن محفوفًا بالمخاطر. لكن رغم

ذلك فقد تناول الحداثيون علومَ القرآن -ومن خلالها القرآنَ الكريم- بالدراسة والتحليل والنقد، مستخدمين أدواتٍ غيرَ الأدوات التي عرفها المسلمون في فجر الإسلام؛ إنها أدوات اخترعتها الحداثة. (...) وهذا البحث، دراسةٌ لأهم قضايا علوم القرآن كما يتناولها الحداثيون، دراسةً علميّةً تَرُدُّ المشكلاتِ المثارةَ إلى أصولها الفكرية والمعرفية»[1].

وكما هو معلوم، فإنّ البحوثَ التي درست آراء الحداثيين في القرآن العزيز وعلومه -كثيرةٌ، غير أن الباحث تناول دراسات الحداثيين -كما سيأتي- بمنهج نقدي يَعِزُّ وجودُه في الدراسات الشرعية، كما أنه درس أبحاثهم في إطارها الكلي؛ بحيث لم يكن غرضُه -أثناء دراسة علوم القرآن- البحثَ عن القول الصواب فيها، بقدر ما كان غرضه البحث عن المشترك بين هؤلاء الحداثيين، وما هي الزاوية التي ينظرون بها ومن خلالها إلى علوم القرآن، وهذا ما حمل القارئ لكتاب: (علوم القرآن في المنظور الحداثي)، على أن يخصّه بقراءة تقويمية تبرز محتواه، والإشكالاتِ التي أجاب عنها، وأهم مزاياه.

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود. ص٥-٦.

محتويات الكتاب:

احتوى الكتاب على: **مقدمة وبابَين وخاتمة**؛ بحيث ذكر الباحث في **المقدمة** دوافع البحث والجديد فيه، والمنهج الذي سيتبعه في بحثه، ثم ذكر الخطة المقترحة، وختم مقدمته بذكر الصعوبات التي اعترضت الباحث.

وأمّا **الباب الأول** فقد كان بعنوان: (المرتكزات الحداثية في دراسة علوم القرآن)، أي: الأصول المعرفية التي يستند إليها الفكر الحداثي، متضمِّنًا ثلاثة فصول، يشكل كلُّ فصلٍ منها مرتكزًا؛ فكان **الأوَّل** عن الفكر الحداثي؛ بحيث تحدّث الباحث عن الحداثة ونشأتها في الغرب، ثم انتقالِها إلى العالم العربي والإسلامي. وكان **الفصل الثاني** عن الدراسات الاستشراقية؛ مُبْرِزًا مدى اهتمام المستشرقين بالقرآن الكريم، وماهيةِ القضايا التي بحثوها. وأما **الفصل الثالث** فكان المرتكز هو تراث علوم القرآن عند المسلمين.

أما **الباب الثاني** فهو بعنوان: (قضايا علوم القرآن في المنظور الحداثي: تحليل ونقد)، وقد تضمن أربعة فصول؛ فجعل الباحثُ **الأوَّلَ** في (الظاهرة القرآنية ومناهج دراستها في المنظور الحداثي)، تناول فيه مصطلح «الظاهرة القرآنية»؛ مبيِّنًا سبب التسمية والآثار المترتبة عن ذلك، مع عرضِ مناهج التيار الحداثي في دراسة الظاهرة القرآنية. وجعل **الفصل الثانيَ** في (كمال القرآن)، متحدِّثًا فيه عن كل ما له صلة بكمال القرآن؛ كأصل القرآن ومصدره، وأمّية النبي ﷺ، وإعجاز القرآن. وجعل **الفصل الثالثَ** في (جمع القرآن)؛ بحيث تعرَّض للطعون التي

يوجهها التيار الحداثي لظروف جمع القرآن، ونقَدَ الشبهات التي يوجهونها إليه، وكذا الحديث عن ربط الحداثيين للنَّسخ بشبهة «ما ضاع من القرآن». ثم جعل **الرابعَ** في (تاريخية القرآن)؛ مبيِّنًا مفهومها، وربْطَ الحداثيين لها بأسباب النزول، مع الحديث عن «الهيرمينوطيقا»؛ لكون الفكر الغربي يجعلها مسوِّغا للحكم على كتاب الله العزيز بتاريخيته.

هدف الكتاب:

لا نجد للباحث نصًّا في إحدى فِقرات كتابه -خصوصًا المقدمة- أو جُمَلِه على أنها هدف البحث، ولكنَّ في بعض كلامه إشارةً إلى ما يبتغيه؛ وذلك عند قوله: «هذا البحث دراسة لأهم قضايا علوم القرآن كما يتناولها الحداثيون، دراسةً علميةً تَرُدُّ المشكلاتِ المثارةَ إلى أصولها الفكرية والمعرفية، (...) والمقصودُ بالأصول المعرفية: المرتكزاتُ التي يرتكز عليها الحداثيون في تبنِّيهم لهذه القضايا»[1].

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود. ص٦.

الإشكالات الأساس للكتاب:

لم ينص الباحث على الإشكالات الأساس التي سيجيب عنها في بحثه، لكن من خلال الهدف الضمنيِّ الذي تمَّ ذِكْره، ومن خلال القضايا التي عالجها الكتاب وانبرى للبحث فيها -يبدو واضحًا أنها تسأل (بعد تحديد ماهية القضايا التي أثارها الفكر الحداثي) عن:

- المنطلقات والمعايير التي كان يستند الفكر الحداثي العربي إليها وتقود تصوره؛ لاستخلاص نتائج بحثه، وهو ما كان يعبر عنه الباحثُ كثيرًا بـ(الأصول الفكرية والمعرفية).

- ومصادر استقاء مادته، ونوعية الأطاريح والموضوعات التي تضمَّنتها تلك المصادر.

- وعلّة اختياره لمعالجة هذه القضايا -تحديدًا- دون غيرها، ومدى توافقها أو اختلافها مع آراء المستشرقين.

ولأجل الإجابة عن هذه الإشكالات؛ كان واجبًا على الباحث -بعد دراسةِ مؤلَّفات الحداثيين العرب- الاطلاعُ بل الإلمامُ بالفكر الغربي وفلسفته؛ «للتعرُّف على أصول الحداثة ومكوناتها وأبعادها»[1]؛ إذ الغرب هو المرجع لكلّ

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود. ص٧.

مَن تبنَّى الحداثة. كما أن الباحث درس بعض أهم المؤلفات الاستشراقية، التي تناولت القرآن الكريم وعلومَه بالبحث والتأليف؛ سواء المؤلَّفة بالعربية أو باللغات الأجنبية؛ كالإنجليزية والفرنسية، وقد أعان إلمامُ الباحث بهاتين اللغتين على الاستفادة من المؤلفات الأجنبية مباشرة، بحيث بلغ عدد هذه المؤلفات الأجنبية المذكورة في (لائحة المصادر والمراجع) ثمانية عشر مؤلفًا، كما أن له إصدارًا باللغة الإنجليزية كما مرّ.

وقد كانت هذه الإشكالات مدار البحث، خصوصًا الإشكال الأول؛ لأنه متضمِّنٌ لِلإشكالين الآخرين وهما خادمان له، ولأنه -أيضًا- غايةُ البحث وثمرته، وهي إشكالية ظاهرة الارتباط بأهداف الكتاب كما هو بيِّن، وفيما يلي بيان لكيفيات مقاربة المؤلف لهذه الإشكالية وتعامله.

المنطلقات والمعايير التي كان يستند الفكر الحداثي العربي إليها والتي توجهه في أبحاثه:

ذكر الباحث في الباب الأول المرتكزاتِ والأسسَ التي يقوم عليها تصور الفكر الحداثي لمعالجة قضايا علوم القرآن، وهي: الفكر الحداثي الغربي، والدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم، وتراث علوم القرآن عند المسلمين. وأثناء حديثه عن الفكر الحداثي الغربي، بيّنَ الباحث -مفصلًا- العواملَ الرئيسة لظهور الحداثة في الغرب، التي ابتدأت منذ القرن الرابع عشر للميلاد؛ والتي كانت ردَّ فعلٍ ضد استبداد الكنيسة وفساد رؤاها وأحكامها، وانحطاطِ

الفكر الأوربي جراءها؛ وتلك العوامل هي: حركة الإصلاح الديني، والفلسفة العقلانية والإنسانية، التي كانت ترى الكتاب المقدّس ربانيَّ المصدر، غير أنه ثمة تحريف اعتراه، أو أنه نتاج بشري، ينشد زرع القيم وتوحيد المجتمع. «هذه العوامل التي كانت وراء ظهور الحداثة في العالم الغربي، سيكون لها أكبر الآثار وأخطرها على الفكر الغربي في القرون الموالية إلى اليوم، خاصّة فيما يتعلّق بالمواقف من الدين، أيِّ دين، (...) وهي التي حكَمَت رؤى المستشرقين، وكذلك رؤى المفكِّرين الحداثيين العرب والمسلمين، في تعاملهم مع الإسلام عمومًا، والقرآنِ خاصة»[1].

مصادر استقاء الفكر الحداثي مادته، ونوعية الأطاريح والموضوعات التي تضمنتها تلك المصادر:

أمّا بخصوص مصادر الفكر الحداثي في معالجة قضايا علوم القرآن، فإنّ المصدر الأساس هو: الدراسات الاستشراقية للقرآن الكريم، سواء التي أُلّفت منذ عهد الترجمات الأولى للقرآن الكريم من لدن الكنيسة، ثم الدراسات الأخرى التي بحثها مستشرقو البعثات الأوربية إلى البلدان الإسلامية؛ كتيودور نولدكه، وجولد تسيهر، أو من خلال الموسوعات الاستشراقية التي كان يشارك في تأليفها عدد من المستشرقين في شتى الميادين، وقد كان في اللجنة الاستشارية

(١) علوم القرآن في الفكر الحداثي، أحمد بوعود. ص٣٢.

لإحدى تلك الموسوعات، بعضُ الحداثيين العرب، منهم «نصر حامد أبو زيد (جامعة ليدن)، ومحمد أركون (جامعة السوربون)»[1].

وقد كانت أبرز الموضوعات التي تضمنتها تلك الدراسات الاستشراقية الباحثة في القرآن الكريم، هي: «أصل القرآن، والقراءات القرآنية، وجمع القرآن، وترتيب القرآن، وما ضاع من القرآن»[2]. وكما هو ملاحظ، فإن هذه القضايا يجمعها شيء واحد، وهو: ربانية المصدر القرآني، والتشكيك فيه؛ إذ هي امتداد للنزعة العدائية التي تبنَّتها العقلية الأوربية تجاه الكتاب المقدّس. «هذه الأطروحات ستجد صداها في آراء الحداثيين»[3] العرب.

علة اختيار الفكر الحداثي لمعالجة هذه القضايا دون غيرها، ومدى توافقها مع آراء المستشرقين:

الجواب عن هذا الإشكال هو بمثابة الاستدلال على ما أُجيب به عن الإشكالين السابقين، وقد خصص له الباحثُ الباب الثاني كلَّه، والذي تجاوز حيِّزُ بحثه ثلُثَي الرسالة، وقد بيّن فيه الباحث بجلاءٍ أنّ سبب اكتفاء بعض الحداثيين العرب لدراسة قضايا معيّنةٍ من علوم القرآن –هو اكتفاء المستشرقين

(١) علوم القرآن في الفكر الحداثي، أحمد بوعود. ص٥٤.

(٢) المرجع السابق نفسه. ص٥٥.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص٦٤.

بدراستهم لهذه القضايا[1]، وقد أدى هذا إلى توافق شِبه كُلِّي في النتائج التي تبنّاها التيار الحداثي العربي، والتي نصّ عليها المستشرقون قبلهم، غير أن الباحث لم يكتفِ بالتوافق في النتائج؛ وإنما بحث في مَرَدِّ هذا التوافق، فتوصّل إلى أن الفكر الحداثي العربي ينظر في النصّ القرآني، بالنظرة نفسها التي يبحث بها الفكر الغربي في كتابه المقدّس بصفة عامّة، أو المستشرقون في القرآن الكريم بصفة خاصّة، يقول أحمد بوعود في سياق ردّ الفكر الحداثي لإعجاز القرآن وبعض عقائد المسلمين: «تتضح آفة الفكر الحداثي المقلِّد في محاولة عقلنة كلّ العقائد، وإذا لم يجد إلى ذلك سبيلًا وصَمَ هذه العقائد بالأساطير والخرافات. أمّا الغيبيَّات فهي عنده مِن هذا الصنف؛ وذلك تقليدًا للحداثة الغربية، وعملًا بمذهب العقلانية المادية»[2].

ومن خلال ما سبق، يتبين أنّ طبيعةَ الإشكالات التي عالجها الباحث باحثةٌ في الأصول المعرفية والفلسفية الموجِّهةِ لبحوث الحداثيين، فكانت المقاربة المعتمَدةُ من لدن الباحث، مقاربةً فلسفية بمنطلقات وأدوات شرعية، مُبرِزَةً التخبُّطَ المنهجي والتقليدَ المكتنفَيْنِ لأغلب البحوث الحداثية.

(١) علوم القرآن في الفكر الحداثي، أحمد بوعود. ص١٢٦.

(٢) المرجع السابق نفسه. ص١٤٨.

أبرز مزايا الكتاب:

يمكن عدُّ المنهج النقدي الذي سلكه الباحث في دراسة قضايا علوم القرآن التي تناولها الفكر الحداثي بالبحث -أخصَّ ميزة للكتاب؛ إِذْ يندر توظيف هذا المنهج في الدراسات الشرعية، مقارنةً بالمنهج الوصفي، أو المقارن، أو التحليلي، الذي يغلب عليها[1]، وقد ساعده هذا على:

- إبراز تقليد الحداثيين العرب -شبهِ التامّ- للنتائج التي سبق إليها المستشرقون عمليًّا، ومن خلال قضايا متعدّدة في علوم القرآن، فكثيرًا ما كان الباحث يعقّب بعد دراسة تلك القضايا عند الحداثيين بعبارة: «وهنا يتبيّن القارئ -مرةً أخرى- آفة التقليد الحداثي، والنزوع إلى كلّ ما هو غربي، (...) وتقليدهم فيما يقولون بغير علم ودراية»[2]، ومثلها قوله: آفة التقليد الحداثي «الانبهار بآراء المستشرقين، واعتبار ما صدر منهم صوابًا ينبغي اتباعه»[3]. بل إنه كان ينعى على الفكر الحداثي عدم توظيف المنهج النقدي الذي ألزموا به

(١) أجريَتْ دراسة في مناهج المؤلفين، اشتملت على اثنين وأربعين كتابًا من الكتب التي كان عنوانُها، أو جزءٌ منه: (أصول التفسير)، فكان نصيب المنهج النقدي من تلك المؤلفات: ثلاثةً، في حين غلب المنهج الوصفي على الباقي. انظر: أصول التفسير في المؤلفات: دراسة وصفية موازنة، إعداد: وحدة أصول التفسير، مركز تفسير للدراسات القرآنية -الرياض، (ط:١)، (١٤٣٧هـ/ ٢٠١٥م). ص٣٨٩ وما بعدها.

(٢) علوم القرآن في الفكر الحداثي، أحمد بوعود. ص١٦٩.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص١٢٩. وانظر: ص١٢٦-١٥٥ وغيرهما.

أنفسهم؛ إذ يقول: «وما يُؤسف له هو أن الفكر الحداثي العربي لم يستطع الانفلات من ربقة تقليد المستشرقين، ولم يستخدموا المنهج النقدي حقّ الاستخدام، ذلك المنهج الذي ملؤُوا به الدنيا صخبًا. وهذا عيب الحداثة العربية المستوردة»[1].

● إدراك الحقائق الكامنة في استعمال بعض المصطلحات التي نحتها بعض الحداثيين العرب، وعدم الاكتفاء بما ذكره الحداثيون تَعِلَّةً لاستخدامها؛ كمصطلح (الظاهرة القرآنية)، فبعد أن خصّه الباحث بالدراسة؛ لكونه أكثر دورانًا في مصنفاتهم، توصل الباحث إلى أن الغاية من إطلاق هذا المصطلح هو «الانفلات من سلطة القرآن الكريم وسيادته، كما أن التعبير بـ(الظاهرة) يجعل من القرآن الكريم نصًّا قابلًا لأن تُطبّق عليه كلّ مناهج النقد»[2]؛ مستندًا في ذلك إلى أن نحت مصطلح (الظاهرة القرآنية)، جاء على غرار مصطلح (الظاهرة الدينية) الذي انبثق في الغرب، كما أن معنى (الظاهرة) عند الفلاسفة، يُراد به ما كان «موضوعًا ماديًّا يقتصر فقط على ما هو مشاهد ومحسوس فقط، وهذا ينفع في الظواهر العلمية الطبيعية، ولا يُمكن إسقاطه على القرآن الكريم ذي البُعد الغيبي»[3].

(١) علوم القرآن في الفكر الحداثي، أحمد بوعود. ص١٧٤.

(٢) المرجع السابق نفسه. ص٩٥.

(٣) علوم القرآن في الفكر الحداثي، أحمد بوعود. ص٩٦.

● النجاح في ردّ معظم القضايا التي تناولها الفكر الحداثي بالدراسة إلى أصولها الفكرية والمعرفية، ومنها رفض الباحث بعض المناهج المقترحة من لدن الحداثيين لدراسة نصوص القرآن الكريم؛ لكونها لا تتفق وربانيةَ النصّ القرآني؛ مستندًا في ذلك إلى أصل وجود تلك المناهج، والغايةِ التي وُجِدَتْ لأجلها. ومثال ذلك محاكمةُ المنهج السيميائي الذي يدعو أركون إلى توظيفه في فهم الخطاب القرآني، فذكر أن «المنطلق الرئيس للسيميائيات عند كريماس[1] هو الحكاية الشعبية؛ مما يجعل تطبيقها على النصّ القرآني فيه الكثير من المغامرة. أضِفْ إلى ذلك أنّ ما من نظرية ظهرَتْ إلّا وتحمل في طياتها نزعات الأيديولوجية التي أبدعتها، قد لا تتفق والأيديولوجيات والهويات الأخرى، كما أن تطبيقها لا ينفصل عنها»[2].

(١) هو مؤسس علم السيميائيات.

(٢) علوم القرآن في المنظور الحداثي. ص١٦٧.

أهم الملاحظات:

يمكن ذكر بعض الملاحظات على الكتاب؛ إذ الكمال لله وحده، ومنها:

عدُّ تراث علوم القرآن من مرتكزات الفكر الحداثي:

جعل الباحث تراث علوم القرآن عند المسلمين من المرتكزات التي اعتمد عليها الفكر الحداثي العربي في تصوّر قضايا علوم القرآن، فعرض بعضَ تلك القضايا التي يرى أنها «تفرض مناقشة وتأملًا، وتكشف عن ثغرات منهجية تنال من قداسة القرآن الكريم، يتكئ عليها الفكر الحداثي والاستشراقي على حد سواء»[(١)]. والمباحث التي ذكرها -على سبيل التمثيل[(٢)]- هي: (ما تكرر نزوله)، (ما تأخر حكمه عن نزوله، وما تأخر نزوله عن حكمه)، (ترتيب السور)، و(النسخ في القرآن)[(٣)]. لكن الذي يطلع على ما أورده الباحث، يرى أن ما يتكئ عليه الباحثون؛ إنما هي أقوال مبثوثة في تراث علوم القرآن، مع أقوال أخرى لا تمسّ من قداسة القرآن، وليس استقصاء السيوطي (أو غيره) للأقوال في مسألة معيّنة -بثغرةٍ منهجية، بل لعلّها من الخصال المحمودة في البحث العلمي التي

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي. ص٨١.

(٢) قال الباحث: «أشير إلى أنّ تناول هذه القضايا، إنما هو للتمثيل فقط لا الحصر. وإلّا، لو أراد الباحث تتبع هذه الثغرات في جُلّ قضايا هذا الفنّ لاحتاج إلى بحث آخر»! المرجع السابق نفسه. ص٨١.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص٨١ وما بعدها.

تنمّ عن سعة الاطلاع، وطول البحث، والموضوعية والحياد، وإن كان من الأفضل الردّ عليها مع إيرادها. وقد أجاب الباحث نفسه -حين اتكأ أحد الحداثيين على بعض تلك الأقوال- بإجابات، منها: أن «السيوطي -رحمه الله- وكأنه هنا يعرض فقط للأقوال والاحتمالات الممكنة»[1].

ولعلّ مراد الباحث في جعلِ تراث علوم القرآن للمسلمين مرتكَزًا للحداثيين -إنما هو المرتكز التبعي، وليس بالأصالة؛ فالذي يقرأ الكتاب يرى أن العمدة في ذلك إنما هو التوجّه الحداثي الغربي، وما ألَّفه المستشرقون في الدراسات القرآنية. وليس استغلال الاستشراق لرواياتٍ موجودة في تراث المسلمين بمُسوِّغ عدّها من مرتكزاته؛ لأن توظيف تلك الروايات إنما كان بإيعاز من الدراسات الاستشراقية، وبمعايير التوجه الحداثي الغربي.

مشكل الربط بين المباحث، والإحالة، والتخريج الحديثي:

سيجد القارئ معاناةً في الربط بين المرتكزات الفكرية والمعرفية التي بيَّنها الباحث في الباب الأول من الكتاب، وبين القضايا التي درسها في الباب الثاني؛ ذلك بأنه -في كثير من الأحيان- لم يكن يُحيل على تلك المرتكزات أثناء دراسة القضايا، مكتفيًا بقوله -مثلًا-: «تصوُّر أركون هذا يضعنا أمام قضية ليست

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي. ص١٣٠. بتصرف يسير جدًّا.

بجديدة، وهي تلك المتعلقة بالشفهي والكتابي للقرآن الكريم»[١]. وقد يحيل -لكن من غير إيعاز إلى رقم الصفحة- مكتفيًا بقوله: «ولْيُقارنْ هذا الكلام بما ذهب إليه الجابري، أيّ نتائج حقق هؤلاء المستشرقون؟»[٢]. كما أن الباحث كان يُورِد صفحات من غير أن يعزو إلى مظانها، كما حدث عند حديثه عن عنصر: (حركات الإصلاح الديني)[٣].

أمّا تخريج الأحاديث أو الآثار الواردة في الكتاب، فقد كان على خلاف المعتاد في مناهج البحث العلمي الشرعية؛ إذ لم يكن يحيل على دواوين السنة، بله ذكر درجة الحديث[٤]، مكتفيًا -أحيانًا- بالعزو إلى كتاب (الإتقان) للسيوطي[٥]، أو (فتح الباري) لابن حجر[٦]، بل -أحيانًا- يكتفي بقول: «ومَن يستقصي التاريخ»[٧]. ولعلّ للباحث منهجًا مختلفًا عن مناهج المحدثين في

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي. ص٩٣.

(٢) المرجع السابق نفسه. ص١٩٢.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص١٧-١٨-١٩.

(٤) مع أن الرسالة نوقشَتْ -على أقل تقدير- سنة ٢٠٠٩؛ ذلك أن لائحة المصادر والمراجع تضمنَت كتبًا، طُبعَتْ في السنة نفسها.

(٥) علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود. ص١٥٣-١٦٨.

(٦) المرجع السابق نفسه. ص١٥٨.

(٧) المرجع السابق نفسه. ص١٥٠.

تحديد صحة الحديث وضعفه؛ إذ قال في الروايات الواردة في (الإتقان): «وما يأمله الباحث، هو فصل القول في الروايات التي تتعارض مع كمال القرآن رغم ثبوت صحتها»[١]، كما أنه اعترض على حديثٍ ورَدَ في (صحيح مسلم) بكونه لم يرِد في (صحيح البخاري)[٢]! ثم دعا «إلى تمحيص الروايات المتعلقة بالقرآن الكريم؛ جمعًا ونزولًا، ولا يكفي أن يكون سندها صحيحًا للحكم عليها؛ بل يجب النظر إليها في إطار الرؤية القرآنية الكلية»[٣].

الإيغالُ في بعض الدعاوى العريضة وتهويلُها:

ومن ذلك تضخيم قضية (أزمة العقل المسلم)[٤]، وجعلها السبب في إيراد بعض القضايا في كتب علوم القرآن، كقوله: «هل يمكن تفسير هذا بالجمود والتقليد الذي عرفه الفكر الإسلامي في تلك الفترة؟!»[٥]، كما بيَّن «أن اللحظة الزمنية التي تنتمي إليها كتب علوم القرآن، [بدءًا من (فنون الأفنان) لابن الجوزي، إلى (الإتقان)] هي ما يُسمى في الفكر الإسلامي بقرن الجمود، (...)

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود. ص٢١١.

(٢) المرجع السابق نفسه. ص٨٦.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص٨٨.

(٤) علَّل بهذا كثيرًا من القضايا.

(٥) المرجع السابق نفسه. ص٨٦.

ويمكن القول: إن قرون التقليد والجمود تمثلُ نموذجًا لأزمة العقل المسلم، وضمن هذا السياق التاريخي جاءت كتب علوم القرآن»[1]، ثم زعم الباحث: أن الذي «يبتغي معرفةً نقيةً تُثَبِّتُ إيمانه، أو تلج به في عالم الإيمان»، فإن كتب علوم القرآن لا تفيده، قائلًا: «وليست كتب علوم القرآن -بما هي عليه الآن- مما يساعد على ذلك»[2]، ولم يستثْنِ سوى كتاب (الانتصار) للباقلاني، و(مباحث في علوم القرآن) لصبحي الصالح. وقد كان من آثار ذلك اكتفاءُ الباحث -أحيانًا- بالتعليل في ردِّه بـ(أزمة العقل)، أو بذكرها ضمن مرجحاته؛ كقوله -عند ذكر بعض الأقوال المرجوحة في معنى الوحي-: «على فرض احتمال صحة ما عرضه السيوطي، فإنّ السياق التاريخي الذي دوّن فيه الإتقان (...) يجعل كثيرًا من أقوال السيوطي محلَّ نظر ومراجعة، إن لم نَقُل: محلّ رفض»![3].

عدم بيان بعض المصطلحات التي تحتاج إلى شرح:

لعلّ الإلمام الواسع للباحث بالفلسفة الغربية، جعله يُعرِض عن بيان بعض المصطلحات التي لا يتسنَّى لكثير من الدارسين في العلوم الشرعية معرفتها، مما

(١) علوم القرآن في المنظور الحداثي، أحمد بوعود. ص٧٩.

(٢) المرجع السابق نفسه. ص٨٨.

(٣) المرجع السابق نفسه. ص١٣٠.

يجعل القارئ يعاني في فهم بعض الفقرات إلّا بالرجوع إلى معاجم المصطلحات الفلسفية الغربية، ومن تلك المصطلحات: (الإمبريالية الغربية)، (تيولوجيا)، (سوسيولوجيا)، (الفيلولوجيا)، (الأرثوذكسي)، (إبستمائية)، (بسيكولوجي)، (الأنتروبولوجيا)، (البروتستانت)...إلخ.

خاتمة:

يمكن عدُّ هذا الكتاب إضافة نوعية إلى مكتبة الدراسات القرآنية؛ بحيث يزيل اللثام عن الخبايا التي تستكن بين كثير من قضايا علوم القرآن المثارة من قِبَل الحداثيين العرب؛ وذلك بالكشف عن أصولها الفكرية والمعرفية، وبيانِ تقليدهم الكليّ -تقريبًا- للمستشرقين، ونقدِ التصورات التي تحفِل بها مصنفاتهم، واختبارِ نجاعة المقترحات والمناهج التي يزعُم الفكر الحداثي العربي أنها بديل عما تلقيناه عن علمائنا المتقدمين، وتزييفِ كثير من دعاويهم وشبهاتهم.